ملخص:

تفيد مادة مقياس التيارات الصوفية بالغرب الإسلامي الطالب في التعرف والإلمام بمعلومات تخص التصوف وتاريخه بالغرب الإسلامي، العوامل التي ساعدت على انتشاره وتطوره، التيارات التي عرفها ودور أقطابه في تطويره وتكوين تيارات صوفية خاصة بهم، كما تُمكن الطالب من تتبع إسهامات فئة المتصوفة في المجتمع وعلاقتها بالسلطة والفقهاء آنذاك، فضلا عن فك رموز خطاب نص الكرامة الصوفية ورصد دورهم في المجالين الفكري والثقافي.

محاضرات مقياس التيارات الصوفية بالغرب الاسلامي السنة ثانية ماستر غرب إسلامي

المحاضرة1: مصادر دراسة التصوف في الغرب الإسلامي:

1 – كتب المناقب:

شكل هذا النوع من المصادر أهمية بالغة في دراسة التصوف بالغرب الإسلامي وذلك لكونه قد احتفظ لنا ار عن شخصيات صوفية تتعلق بحياتهم ومواقفهم من الظروف التي عايشوها آنذاك، و إبراز الجانب العملي لحركة التصوف انطلاقا من خطاب الكرامة الذي ترجم مدى فاعلية أقطاب التصوف في مختلف ميادين الحياة بمجتمع الغرب الإسلامي، ونذكر على سبيل المثال لا الحصر:

***بستان الأزهار في مناقب زمزم الأخبار ومعدن الأنوار سيدي أحمد بن يوسف الراشدي النسب والدار أبو يعزى سيدي موسى** محمد بن محمد بن علي على الصبّاغ القلعي الذي تضمن مناقب المتصوف أبي يعزى صاحب الكرامات الكثيرة،فذكر أخبار تتعلق بحياته كلباسه وأكله ومسكنه ،فضلا عن علاقته ببعض الفقهاء ممن أنكروا عليه كراماته إلى جانب دوره في الحياة الاجتماعية بالمغرب.

***مناقب أبي العباس السبتي** لأبي القاسم علي الهواري ،وقد ذكر فيه مناقب المتصوف المغربي الشهير أبي العباس السبتي صاحب الإحسان والصدقة، كما أشار إلى كراماته التي اشتهر بها فضلا عن دوره في المجال الاجتماعي بالمغرب الأقصى وعلاقته بالخليفة الموحدي المنصور.

***كتاب أنس الفقير وعز الحقير** لابن القنفذ القسنطيني(ت810 هـ/1407م) وقد نشأ صاحبه في بيئة صوفية لذا آمن بكرامات المتصوفة وأقرّ بها واهتم بتتبع أخبارهم، ويتضح ذلك من خلال إعجابه بالمتصوف أبي مدين

شعيب الذي بدا واضحا جليا حتى أنه خصص كتابه هذا لأخباره، فعمد إلى تقصي كل ما تعلق به وباتجاهه الصوفي كما أنه اهتم بسرد أخبار أتباعه وتلامذته ممن أخذوا عنه وعملوا على نشر أفكاره ،وقام أيضا بالتعريف بحياة أبي مدين من لباس ومأكل وتدريس وغيرها.

***المسند الصحيح الحسن في مآثر ومحاسن مولانا أبي الحسن** لابن مرزوق محمد الخطيب(ت781هـ/1379م) واحتوى بين طياته على معلومات تفيد المتخصص في مجال التصوف في التعرف على الجانب الثقافي لمدينة تلمسان وما يتعلق بالزاوية.

2 – كتب الطبقات والتراجم:

لكتب الطبقات والتراجم أهمية في دراسة التصوف إذ تسمح للباحث استخراج معلومات من تراجم الشخصيات عن حياة المتصوفة و طبيعة التيارات الصوفية السائدة آنذاك، إلى جانب كونها تفتح له المجال لمعرفة الأفكار الصوفية والنظريات التي ميزت كل تيار هذا دون أن ننسى تحديدها لنوع العلاقة التي كانت تربط أقطاب التصوف بالسلطة ممثلة في الفقهاء ، وموقف فئة المتصوفة من الظروف التي عاشها المجتمع وما عكسته كراماتهم من خطاب جسد تلك المواقف.

***كتاب التشوق إلى رجال التصوف** لابن الزيات التادلي وقد ألفه في القرن السابع الهجري/الثالث عشر ميلادي واكتست المادة التاريخية التي احتواها بين صفحاته قيمة تاريخية هامة،فهو بمثابة موسوعة شملت أسماء متصوفة الفترة الممتدة بين القرنين الخامس إلى السابع الهجريين/11 و 13 الميلاديين ،وقد ترجم فيه لمئتين وتسعة وسبعين صوفيا،وتأكد من خلال ما ذكره في كتابه أنه متأثر بالتصوف إذ أقر بصحة كرامات المتصوفة الذين ذكرهم.

* **كتاب السرّ المصون في ما أكرم به المخلصون** لطاهر الصدفي الذي عاش في أواخر العصر المرابطي وأوائل العصر الموحدي، و تكمن أهميته في كونه قد عايش أزهى الفترات التي مرّ بها التصوف بالغرب الإسلامي و تضمن تراجم لشخصيات صوفية عرفهم، ويستطيع الباحث من خلاله استخراج معلومات عن المتصوفة والتيارات الصوفية التي اتبعوها .

***كتاب عنوان الدراية فيمن عرف من علماء في المائة السابعة ببجاية** لأبي العباس أحمد بن أحمد الغبريني (ت704 هـ/1306م) وشكل بدوره أهم مصدر ترجم لحياة علماء ومتصوفة المغرب الأوسط خلال القرن 7 هـ

/13 م،كما ترجم لمن وفد إلى بجاية من علماء ومتصوفة أندلسيين ومغاربة وحتى مشارقة، وتكمن أهميته في معرفة التيارات الصوفية التي عرفها المغرب الأوسط والتي عمد شيوخها على تلقينها لطلبتهم عند حلولهم ببجاية.

* **كتاب البستان في ذكر الأولياء والعلماء بتلمسان** لابن مريم (ت1014 هـ/1605 م) الذي تضمن اثنين وثمانين ومئة ترجمة للأولياء والعلماء بتلمسان، وبما أن هذه الأخيرة كانت من بين أهم المدن التي عرفت انتشار التصوف فيها فإن هذا الكتاب يمكننا من معرفة التيارات الصوفية التي عرفتها وعلاقتها بباقي المدن الأخرى من خلال حركة تنقل المتصوفة.

* **بغية الرواد في ذكر الملوك من بني عبد الواد** لأبي زكريا يحي بن خلدون الذي تضمن هو الآخر تراجم بعض العلماء والمتصوفة ،وتكمن أهميته في دراسة التصوف من خلال التراجم الخاصة بالعصر الموحدي والتي تُمكن الباحث من رصد علاقة السلطة ببعض أقطاب التصوف وموقفها من كراماتهم.

3– الموسوعات وكتب المعارف التاريخية العامة:

هذا النوع من المصادر تكمن أهميته في المعلومات التي يستقيها الباحث ويحاول من خلالها رصد حركة الزهد إسهامها في ظهور التصوف بالغرب الإسلامي، كما أنها تعطي له إشارة عن الدور الذي لعبته السلطة آنذاك في ظهور بعض التيارات الصوفية، كما أنها تشير في كثير من الأحيان لموقف السلطة والفقهاء من التصوف وعلاقتهم بأقطابه.

4–كتب الجغرافيا والرحلات:

بما أن العامل الاقتصادي قد لعب دورا بارزا في ظهور وانتشار حركة التصوف فإن هذه المصادر تكتسي أهمية لأنها غنية بالمعومات الخاصة بالاقتصاد والتي تبين لنا علاقة عامل الثراء وحتى الأزمات بالتصوف، كما أنها تحمل مادة تاريخية مهمة لا يمكن الاستغناء عنها.

5–كتب الشعر:

لعب هذا النوع من المصادر دورا مهما في الدراسات التي اختصت بالزهد والتصوف خاصة فيما يتعلق بالمعلومات التي يستخرجها الباحث منها والتي تفيد في رصد الأفكار التي تبناها رموز التصوف آنذاك ولقنوها

لطلبتهم ، إذ نجد أن أقطاب التصوف بالغرب الإسلامي قد أبدعوا في تصوفهم فجاؤوا بأفكار ونظريات صوفية فلسفية جسّدت شخصيتهم المغربية والأندلسية وخلّدوا ذلك في أشعارهم وأزجالهم.

المحاضرة2: عوامل ظهور التصوف وانتشاره بالغرب الإسلامي:

أ- تعريف التصوف:

التصوف هو عزوف النفس عن الدنيا وتخليها عن ملاذها، و" العكوف على العبادة والانقطاع إلى الله تعالى والإعراض عن زخرف الدنيا وزينتها، والزهد فيما يقبل عليه الجمهور من لذة ومال وجاه والانفراد عن الخلق في الخلوة للعبادة "، وهو فقه للباطن لاهتمامه بالأفعال الخاصة بالقلب.

اختلفت المصادر حول اشتقاق كلمة التصوف إذ تعددت الأصول التي نسبت إليها، واجتمع رأي جل المؤرخين على أن أصلها يرجع إلى لباس الصوف الذي اعتاد المتصوفة ارتداءه.

ب- أنواعه:

* التصوف السني:

كان التصوف خلال القرنين 1و2هـ/ 7و8م عبارة عن زهد إذ اقتصر بعض المسلمين آنذاك على نمط خاص في حياتهم، إلى جانب إقبالهم على العبادة والإكثار من الأدعية وتفضيلهم الآخرة عن الدنيا والعمل لها ، كالحسن البصري (ت 110هـ/728م) الذي أراد أن يُكوّن نظاماً قائماً على القرآن والسنة والاقتداء بالسلف الصالح، هذا إلى جانب رابعة العدوية التي جاءت بفكرة الحب الإلهي، ونظراً لخوف المتصوفة الشديد من عذاب الله تمسكوا بالشريعة الإسلامية وغدا بذلك زهدهم عملي معتدل، وعملوا على مراقبة الأفعال الصادرة عن قلوبهم، وهذه المرحلة التي مرّ بها التصوف تعرف باسم **مجاهدة التقوى**، والتي تضمنها كتاب " الرعاية لحقوق الله" للحارث بن أسد المحاسبي (ت 243هـ/858م)، هذا فضلاً عن الجنيد (298هـ/911م) وقد قام تصوفه على الرياضة ومحاولة التحرر من القيود المادية مع إتباعه الشريعة، وبرز بذلك التصوف كعلم إلى جانب علم الفقه بعدما كان عبارة عن حركة زهدية بسيطة، واختص الفقهاء بالعلم الثاني- الفقه – فعالجوا أمور العبادات و المعاملات، أما علم التصوف فقد اهتم

أصحابه بما يتعلق بمسألة محاسبة النفس والتعمق في باطن الشريعة الإسلامية، وعملوا على الاهتمام بالنفس ودراسة العوائق التي تمنع الإنسان من الوصول إلى ربه والتي يتم القضاء عليها عن طريق الابتعاد عن المعاصي وإكثار العبادات للتقرب من المولى عزّ وجلّ.

وفي القرن 3هـ/ 9م اهتم المتصوفة بالكلام في السلوك والنفس وأحوالها وتعمقوا في ذلك، فطُبع تصوفهم بالجانب الأخلاقي في علمهم وأعمالهم، وبات علماً للأخلاق الدينية يختص بالبحث في العبادات ومعاينها وأسرارها الباطنية، وقد تمسك متصوفة القرنين 3و4هـ/ 9و10م بالقرآن الكريم و السنة النبوية واتخذوهما أساساً لتصوفهم و ميزاناً لكل ما يحسون به، وعملوا على جعل أفعال الخير تصدر عن أنفسهم عن طريق تدريبها بالرياضات التي تتم من خلال الابتعاد عن الدنيا وعدم الاهتمام بشهواتها و ملذاتها، وساعدهم في ذلك كثرة الصيام والعبادات فتعودت أنفسهم بعدها على تلك الرياضات، وبات عندهم الفعل أو الترك سواء وهذا ما يعرف **بمجاهدة الاستقامة**.

ونظراً لغلو العديد من المتصوفة في تصوفهم كان لا بد من محاربتهم إلا أن هذا لم يُجدِ نفعاً، فرغم الاضطهاد الذي عرفه كبار غلاة المتصوفة إلاّ أن ذلك زادهم مكانة بل رفعهم إلى منزلة الشهداء، كالحسين بن منصور الحلاج (ت 309هـ/922م) الذي كان من الغلاة لآرائه التي تحدثت عن **الإتحاد بالله**، مما ألزم الصوفية المعتدلين محاولة النهوض بالتصوف وجعله يتوافق مع الشريعة، فخلال القرن 5هـ/ 11م نحا هؤلاء بالتصوف منحىً إصلاحياً، إذ عملوا على محاربة الغلو والانحرافات التي عرفها بعض المتصوفة محاولين الرجوع به إلى الكتاب والسنة النبوية، وكان ذلك بفضل القشيري(ت 465هـ/ 1068م) الذي كتب رسالته إلى جميع المتصوفة المسلمين وضمّنها مبادئ التصوف القائمة على أساس الشريعة الإسلامية، كما أن أبا حامد الغزالي(ت 505هـ/1111م) هو الآخر عمد إلى الرجوع بالتصوف إلى قواعد الدين الإسلامي، وانتصر للتصوف السني القائم على الكتاب والسنة وضَمَّنَ كتابه" إحياء علوم الدين " أحكام الورع والإقتداء إلى جانب شرح مصطلحات المتصوفة وتبيين آدابهم.

*** التصوف الفلسفي:**

عمد أصحاب هذا النوع من التصوف إلى الدمج بين أذواقهم الصوفية والعقل مع استخدام تعابير فلسفية، فاطّلعوا على الفلسفات الأخرى كاليونانية وغيرها وكذا فلسفة المسلمين، هذا فضلاً عن إحاطتهم بالعلوم الشرعية كالفقه والحديث والتفسير، فكانوا بذلك موسوعيين وأصحاب ثقافة متنوعة، وظهور هذا النوع من التصوف يرجع إلى تطلع المتصوفة إلى معرفة الله وحقائق الموجودات انطلاقاً من اهتمامهم بالكشف، وقد ظهرت خلال القرن 3هـ/ 9م نظريات فلسفية مع بعض المتصوفة طبعت تصوفهم، وأصبحوا يُعرضون عن الدنيا ونعيمها لتتطهر أنفسهم أملاً في التقرب من الله والاتصال به.

وراحوا يتبنون عدة نظريات فلسفية طبعت مذاهبهم في التصوف وانعكس ذلك حتى على مؤلفاتهم وأشعارهم، فاستخدموا الرمزية وبالغوا في استخدامها مما انعكس على كلامهم إذ أصبح غير مفهوم عند غيرهم، وجاء ذو النون المصري (ت 245هـ/859م) بفكرة المعرفة في التصوف الإسلامي، واعتمد هؤلاء المتصوفة المصطلحات الغامضة ذات الدلالة الصوفية من أجل أن تبقى متداولة بين من يفهمها منهم دون غيرهم، وجاءت نظرية الفناء مع أبي يزيد البسطامي (ت 260هـ/875م)، أما الحلاج فقد تبنى **نظرية الحلول والاتحاد**، هذا فضلاً عن **نظرية الاتصال** التي جاء بها الفارابي (ت 339هـ/950م)، وكان لشهاب الدين يحي بن حبش السهروردي (ت 580هـ /1191م) دورٌ في إرساء أسس الإشراقية إذ عُرف بشيخ الإشراق.

وخلال القرنين 6و7هـ/ 12و13م عمد بعض المتصوفة إلى الاهتمام بعلوم المكاشفة، وأصبحوا يسعون للكشف عن الروح والملك والوحي والعرش والكرسي وأخذوا طريق الفلسفة في التعبير عن نظرياتهم، و ظهرت بذلك آراء ونظريات عكست مدى تأثرهم بالفلسفة وعرف التصوف الفلسفي ذروته خلال هذه الفترة، فظهر مذهب **وحدة الوجود** و**الوحدة المطلقة**.

ج– عوامل انتشار التصوف بالغرب الإسلامي:

إن انتشار التصوف بالغرب الإسلامي، لدليل على أنه قد توفرت عوامل تشبه تلك التي أفرزته بالمشرق، ليمد بجذوره إلى الغرب الإسلامي الذي شكل البيئة الملائمة له، فانتشار التصوف كان نتيجة لتراكم عدة عوامل سياسية ودينية واقتصادية واجتماعية، غير أن مجموعة من المؤرخين اختلفت آراؤها حول أسباب ظهور هذه الحركة بالغرب الإسلامي، ولا يمكن رد ظهور التصوف وانتشاره بالغرب الإسلامي إلى عامل معين لأنه كان نتاجاً لتفاعل مجموعة من العوامل تمثلت فيما يلي:

1– نزعة الزهد:

عرف الغرب الإسلامي نزعة الزهد منذ القرن 4م لتأثره بنظام الرهبنة المسيحي الذي انتقل إليه من مصر في الفترة التي كان يشهد فيها اشتداد الصراع بين المغاربة والسلطة الرومانية، كما كان للفتوحات الإسلامية دور هام في نشر الزهد الذي ميز حياة الفاتحين أنفسهم، إذ عملوا على الجهاد من أجل نشر العقيدة الإسلامية بشكلها البسيط، نذكر منهم البهلول بن راشد الزاهد الورع التقي وغيره كثير، وفي تلمسان نجد وهب بن منية وبوهران اشتهر سيدي هيدور الزاهد، كما عرفت حركة الزهد بإفريقية ازدهاراً مع سحنون بن حبيب التنوخي (ت 240هـ/854م) و أتباعه من الزهاد.

إلاّ أنه يجدر بنا الإشارة إلى دور المذهب المالكي نفسه في نشر حركة الزهد والتقشف، فمما أوثر عن فقهاء القيروان المالكيين عدم رضوخهم لرغبات الأمراء وإغراءات الحياة فشكلوا بذلك مثالاً للزهد، وخلال القرن 4هـ/ 10م زاد انتشار الزهد حيث كثُر عدد الزهاد بالمغرب، منهم الحارث بن أسد القفصي وجِبلة بن عبد الرحمان بن جِبلة الصدفي، وامتد تأثير القيروان إلى صقلية إذ انتشر فيها تيار الزهد وذلك بحكم علاقتها بإفريقية منذ فتح المسلمين لها حيث مال أهلها للجهاد والمرابطة ومع قيام الدولة الفاطمية وسيطرتها على صقلية زادت حركة الزهد ولعب القضاة الذين هاجروا من إفريقية إليها دوراً في نشر الزهد وعلى سبيل المثال نذكر منهم أبا عمرو ميمون بن عمرو (ت 310هـ/992م) وظلت القيروان منبعاً ينهل منه الطلبة و العلماء الوافدون إليها خاصة في مجال الزهد إلى غاية سنة 449هـ/1057م حيث خُربت على إثر قدوم الهلاليين إليها.

وببلاد الأندلس انتشرت نزعة الزهد فيها اذ مزج **ابن مسرّة** الزهد بالفلسفة والتصوف واستطاع أن يؤثّر في الناس بالأندلس العامة منهم والخاصة فانتشرت بذلك أفكاره في عدة مناطق، كما تجلت مظاهر الزهد والتقوى في مجموعة من العلماء الأندلسيين الزهاد أمثال أبي الأجنس وسعيد بن عمران بن مشرف ويُمن بن رزق صاحب المؤلَف الذي سماه " كتاب الزهد "، هذا دون أن ننسى فضل العلماء الوافدين إلى بلاد الأندلس إذ كان لهم دور فعال في نشر نزعة الزهد.

2- انتشار الربط والزوايا:

انتشرت الربط والزوايا بالغرب الاسلامي وكان لها أثر كبير في انتشار التصوف حيث وفرت المأوى للمريدين وضمنت لهم لقاء كبار الزهاد والمتصوفة والأخذ عنهم مما ساهم في تواصل انتشار التصوف، فاتخذت بذلك القيروان رباطاً للدفاع عن المسلمين من غارات الروم، وزاد انتشار الربط فأنشأ الأغالبة رباط سوسة وعرف برباط المنستير، واشتهرت الربط عندهم باسم **القصور والمحارس**، وعمل المرابطون في هذه الربط على الاهتمام بالتدريب العسكري والفروسية و في وقت السلم اهتموا بالجانب العلمي كحفظ القرآن الكريم وتفسيره ، إلاّ أن الربط لم تظهر بالمغرب الأوسط إلاّ بعد القرن 5هـ/ 11م ويرجع ذلك لحركة الجهاد البحري التي كانت المراسي مركزاً لها فنابت عن حركة المرابطة، وأنشأ أبو عبد الملك مروان بن محمد الأسدي البوني الأندلسي رباط بونة، كما نجد قصر اللؤلؤة ببجاية.

ومن الربط بالمغرب الأقصى رباط شاكر ورباط هرغة ببلاد السوس وأصيلا ورباط نفيس الذي أنشأه واجاج بن زلو اللمطي وسماه بدار المرابطين، وكان يلقن فيه طلبته العلم والقرآن الكريم، وقد تشبع فيه عبد الله بن ياسين الجزولي بمبادئ الزهد والتقشف والورع والإخلاص والجهاد في سبيل الله، وساهم هو الآخر بإنشاء رباط كان نقطة بداية نشوء دولة المرابطين، وعمل ابن تومرت هو أيضاً على تكوين دعاة في رباط تينمل وكُلّل ذلك بقيام دولة الموحدين، والجدير بالذكر هنا هو وجود نوعين من الربط التي عرفتها كلاّ من بلاد المغرب والأندلس، إذ شكّلت ربط مدن بكاملها كرباط ماسة و رباط تيط، ورابطة زرهون، أما النوع الثاني من الربط فهو عبارة عن مكان يرابط فيه المجاهدون، وقد عرفت صقلية هي الأخرى حركة المرابطة والربط، أما بلاد الأندلس فقد قامت فيها الربط هي الأخرى لحمايتها من ضربات النصارى كرباط المرية، ورباطي عمروس والخشني وهما بجوار المرية، ورباط روطة.

ومع بداية النصف الأول من القرن 6هـ/12 م بدأ الرباط يفقد وظيفته العسكرية والمتمثلة في الحراسة وبات المرابطون فيه يعملون على ممارسة العبادة والذكر، واتخذ شكلا آخر عُرف بالرابطة كرابطة القابطة أو القبطية ورابطة العقاب بالأندلس، كما أسهمت الدولة المرينية في بناء الزوايا الأمر الذي زاد في انتشار حركة التصوف أكثر ومن الزوايا المرينية نذكر الزاوية المتوكلية بفاس والزاويتين القديمة والحديثة بمكناس.

3- الرحلات و مؤلفات المتصوفة:

لعبت الرحلة دورا كبيرا في انتشار التصوف بالغرب الاسلامي وجسدت التأثير المشرقي على المتصوفة المغاربة، فنجد أبو مدين شعيب الذي رحل إلى المشرق ولقي الشيخ عبد القادر الجيلاني وأخذ عنه، وأبو محمد عبد الله بن موسى الجزولي السجلماسي الذي رحل إلى مكة وأخذ عن متصوفتها، ومن مظاهر التأثير المشرقي أيضا رواج مؤلفات المتصوفة المشارقة في الغرب الاسلامي ككتاب "الرعاية لحقوق الله" للمحاسبي، وكتاب" قوت القلوب" لأبي طالب مكي الذي أدخله أبو بكر محمد بن نعمة القرشي، هذا فضلا عن كتاب "الرسالة القشيرية" لأبي القاسم القشيري وكتاب "تلحيقات السهروردي" الذي درّسه صوفية بجاية لمريديهم، غير أن كتاب "إحياء علوم الدين" لأبي حامد الغزالي كان أكثر المؤلفات انتشارا بالغرب الاسلامي.

بيد أننا نجد متصوفة الغرب الإسلامي قد ساهموا بأنفسهم في نشر التصوف من خلال ما ألفوه من كتب في هذا المجال، كمؤلفات عبد الحق الإشبيلي وابن العريف وغيرهما، وبصقلية نجد مؤلفات أبو القاسم عبد الرحمان بن محمد بن عبد الله البكري الصقلي(ت 380هـ/990م)، كما اسهموا بنشر التصوف من خلال رحلاتهم الداخلية بين مدن الغرب الاسلامي.

4- العوامل السياسية:

في ظل التعصب العقدي الذي ميز سياسة المرابطين وخضوعهم للفقهاء، فقد ظهرت مجموعة من الزهاد والمتصوفة ممن أرادوا تغيير تلك السياسة ومحاولة التفتح والاطلاع على العلوم المحضورة في عهدهم، وقد ساهم الأمراء المرابطون في نشر التصوف وذلك بترغيب الناس في الزهد فحياتهم غلب عليها الزهد والتقشف، كعبد الله بن

ياسين مؤسس دعوتهم، ويوسف بن تاشفين الذي " كان رجلاً فاضلاً زاهداً يأكل من عمل يده كثير الخوف من الله عزّ وجلّ "، وابنه علي هو الآخر كان "إلى أن يعدّ في الزهاد و المتبتلين أقرب منه أن يعدّ في الملوك والمتغلبين ".

قامت الدولة الموحدية كنظيرتها المرابطية على أسس دينية وذلك بفضل مؤسسها المهدي بن تومرت الذي سنّ لأتباعه مذهب التوحيد، وكان " ورعاً ناسكاً متقشفاً "، وكان لرحلته إلى بلاد المشرق في طلب العلم وتحصيله الأثر البالغ في تكوينه المذهبي إذ أخذ هناك العلم عن أكبر العلماء وأشهرهم، والحقيقة أن تتلمُذه على أئمة الأشعرية وأخذه عنهم كان له الأثر الكبير في تكوين مذهبه، إلاّ أنه خالفهم في بعض المسائل كنفيه لصفات الله، هذا إلى جانب أن استخدام المهدي للعقل كأساس لعقيدته وقوله بالتأويل في القرآن الكريم، كان له الأثر البالغ في بروز نخبة من المتصوفة ممن عملوا على رفض الحجج العقلية التي نتجت عن هذه العقيدة، ومحاولة استبدالها بعقيدة أبسط تقوم على ما كان عليه السلف الصالح ليسهل على الناس إتباعها، فقام تصوفهم على الزهد والتقشف والإقبال على المولى عزّ وجلّ في الباطن والظاهر.

واصل الموحدون بعده فرض تدريس المذهب الأشعري من خلال ما أُلّف فيه كمؤلفات الغزالي إلى جانب استخدامهم التأويل الذي اعتمد عليه مذهب مؤسس دولتهم، وقد عرف التيار الصوفي الفلسفي ازدهاراً في عصر الموحدين نظراً لوجود حركة تشجيع الفلسفة التي تبناها الخليفة أبو يعقوب (ت 580هـ/1184م)، الذي أقدم على تعلم الفلسفة وأحرق كتب المذهب المالكي بعد تجريدها من الأحاديث والقرآن الكريم وفي مقدمتها مدوّنة سحنون من أجل القضاء على هذا المذهب ومحوه، فكان بذلك لسياسة أبي يعقوب اتجاه الفلسفة أثر بالغ في ظهور متصوفة أصحاب النزعات الفلسفية، كما وجد فكر الغزالي ضالته للعودة من جديد وبقوة.

شجع سلاطين بنو مرين حركة التصوف واقتفوا أثر من سبقوهم في الاعتناء بالمتصوفة وبذل العطاء لهم وتوفير حاجاتهم، إذ كان أغلبهم محبين للمتصوفة ويتقربون منهم ويشركوهم في مجالسهم، واشتهر هؤلاء السلاطين بالسيرة الحسنة والتقوى والصلاح والورع وشكّل هذا عاملا مهما ساعد على انتشار التصوف.

5– العوامل الاقتصادية والاجتماعية:

لعبت الأزمة الاقتصادية دوراً فعالاً في بروز تيار صوفي دعا إلى الفقر والتقشف في الدنيا، مما دفع الكثير من الناس إلى الدخول في التصوف باعتبار أنه دائماً يُرجع ظهور هذا التيار إلى الثراء والبذخ والاهتمام بالأمور الدنيوية، ويهمل جانب الأزمات و أثرها في انتشار الزهد . و الابتعاد عن الدنيا، غير أن هذا لا يجعلنا نهمل دور الثراء، إذ نجد أن معظم المناطق التي اقترن اسمها باسم أشهر المتصوفة كانت من ضمن المناطق الثرية، وفي المقابل رافق ظاهرة الثراء والرخاء التي عرفتها تلك المدن تيار دعا إلى الزهد والفقر.

عرف المجتمع بالغرب الإسلامي في ظل الدولتين المرابطية و الموحدية فوارق طبقية، فقيام هاتين الدولتين كان له دور في بروز طبقة الفقهاء والقضاة، ونظرا لكون كلتا الدولتين قامتا على أساس ديني فقد احتل المنشغلون بعلوم الدين مكانة مرموقة ومميزة في المجتمع، وفي ظل الطبقية التي عرفها مجتمع الغرب الإسلامي تأثرت طبقة العـامة وتدهورت أوضاعها وانعكس ذلك على كل الميادين دون استثناء، وانتشرت بالمجتمع خلال العصر الوسيط عدة آفات اجتماعية وتغلغلت فيه وشكّلت عاملاً مساعداً على بروز تيار التصوف، إلى جانب هذا كله عانى المجتمع بالغرب الإسلامي من انتشار المجاعات، ناهيك عن كثرة الأوبئة والأمراض هذا دون أن ننسى ما خلّفته الكوارث الطبيعية من آثار جسيمة، وفي خضم تلك الظروف الاقتصادية و الاجتماعية تخبط فيها المجتمع برزت فئة المتصوفة ممن أرادوا إعادة التوازن للمجتمع ومحاولة محاربة الآفات التي انتشرت فيه.

محاضرة 3: التيارات الصوفية بالغرب الإسلامي وأقطابها:

تتلفت مشارب المتصوفة الثقافية الأمر الذي أدى إلى تنوع اتجاهاتهم الصوفية، و تمثلت التيارات التي عرفها الغرب الإسلامي إبّان هذه الفترة في ثلاثة تيارات وهي:

1– التيارات الصوفية السنية:

اتبع أصحابها الشرع وابتعدوا عن الخوض في المسائل الفلسفية فكان تصوفهم بسيطًا، وتمثلت ملامحه في الزهد ومجاهدة النفس والإقبال على العبادة والأذكار والإكثار منها ونجمل هذه التيارات فيما يلي:

أ_ تيار المجاهدة النفسية:

نهج أصحابه أسلوب المجاهدات والرياضات كالصّيام والقيام والزهد في الحياة، إلى جانب ميلهم إلى قراءة الرقائق، واجتهد العديد منهم في أداء العبادات ومحاسبة النفس وتأنيبهم لها، وكان بعضهم دائم العبادة والحزن والخوف من الله، ومن أقطابه: أبي عمرو عثمان بن علي التلمساني (542هـ/1147م)، آمنة بنت يغروسن ،زكرياء بن يوغان الصنهاجي(ت573هـ/1177م)، عبد الحميد بن صالح الهسكوري، وعلي بن هذيل (ت564هـ/1168م).

ب– تيار المجاهدة العملية:

آثر أتباعه اقتفاء أثر السلف الصالح وقالوا بمبدأ المجاهدة العملية رافضين بذلك مبدأ المجاهدة النفسية، وعملوا على المرابطة بالثغور و الربط دفاعا عن المسلمين ولأجل الاستشهاد، ومن أقطابه أبو علي الصدفي الذي شارك بمعركة كتندة ، وأبو الصبر أيوب بن عبد الله (ت609هـ/1212م) الذي استشهد بمعركة حصن العقاب.

ج– تيار الوعظ و التذكير:

عمد أصحابه إلى إتباع أسلوب الوعظ و التذكير لدعوة الناس إلى حب الله و الحث على العمل للآخرة، واجتهدوا في محاربة البدع وتشددوا في ذلك وتميزوا بثقافة متنوعة والتزموا بإتباع السنة، ومن رواده عبد الحق الاشبيلي(ت581هـ/1185م) وقام أسلوبه على التذكير بالموت وأهواله لينهى الناس عن حب الدنيا وملذاتها ويدعوهم إلى العمل للآخرة، والتزم في كل ذلك بإتباع السنة.

د– تيار الترهيب و الترغيب:

اتّبع أصحابه أسلوب المجاهدات و الرياضات النفسية كالقيام و الصيام مع زهدهم وتقللهم من الدنيا وانقطاعهم عن الناس وعزلتهم في كثير من الأحيان، واعتمد رواده على أسلوب التخويف و التشدد كأساس لردع النفس البشرية الأمارة بالسوء و التي لا تنفعل إلا بالخوف و الترهيب، ومن أقطابه **أبو عمران موسى الميرتلي الزاهد** (ت604هـ/1207م)، و**أبي زكريا يحي الزواوي** (ت611هـ/1214م)، وظهور هذا التيار بالغرب الإسلامي جع للأوضاع التي تخبط فيها المجتمع آنذاك وانتشار المنكرات به و التفسخ الأخلاقي، فكان بمثابة تيار معاكس لتلك الأوضاع جاء ليقضي عليها.

هـ– تيار الخلوة و الانقطاع:

عمد أصحابه إلى اعتزال الناس و الانقطاع عنهم إمّا في منازلهم أوفي زوايا المساجد أو في الجبال و الكهوف و المغارات وحتى في المقابر، من أقطابه **أبو محمد عبد السلام ابن أبي عبد الله آمغار** وابنه **أبو يعقوب يوسف** (ت614هـ/1217م)، وتميزت **أسرة آل آمغار** بأنها أسرة الخير و الصلاح وحرصوا على إتباع السنة في تصوفهم.

و– تيار التصوف التلقائي:

مثلته جماعة من الذين اتبعوا طريق التصوف دون سابق دراية بمبادئه ونظرياته ولم يكن لهم اطلاع عليه، وكان تصوفهم ناتجا عن ظرف ما أو حادثة غيّرت سلوكهم ودفعتهم إلى ولوج الزهد والتقشف، فكان تصوفهم تلقائيا بيد أن أتباع هذا التيار كّلوا نسبة قليلة إذا ما قورنت بغيرهم ممن درسوا عن التصوف ونهلوا عن مشايخه، ومن أقطابه **أبو عبد الله محمد التاونتي المعروف بابن الميلي** (ت590هـ/1193م) **وأبي علي بن العباس المعروف بالحبّاك**(ت613هـ/1216م)، ناهيك عن العديد من المتصوفة ممن تابوا بعدما كانوا سُرّاقًا أو من أصحاب الدعارة وقطاع الطرق، فضلا عمن كان مغنيا في الأعراس مسرفا على نفسه أو ممن يشرب الخمر.

2 – التيار الصوفي السني الفلسفي:

أصحابه المجاهدة النفسية و الخلوة و الذكر للوصول إلى كشف حجاب الحس للإطلاع على الحقائق الإلاهية، وإدراك العلوم اللدنية، وحافظوا في كل ذلك على أن يكون سلوكهم موافقا للشريعة وقد شمل مجموعة من المتصوفة نجملهم فيما يلي:

أ– الغزاليون:

تأثر أصحاب هذا التيار بمبادئ الغزالي(ت505هـ/1111م) التي كانت لهم بمثابة القاعدة، فداوموا على قراءة مؤلفاته ونشروا أفكاره وآرائه، التي قامت أساسا على التزام الشرع، واعتمدوا في ذلك كله على القيام بأنواع

لمجاهدات والرياضات النفسية التي تضمن لهم تنقية النفس كالصيام والذكر والخلوة والقيام، ليخلصوا في الأخير إلى الكشف حيث يطّلعون على الحقائق الالاهية والعلوم اللدنية.

من أشهر رواده **محمد بن يوسف بن سعادة المرسي**(ت566هـ/1170م و **أبو يعزى يلنور**(ت572هـ/1176م) الذي وُصِف **بالقطب**(هو الجامع للأحوال والمقامات بالأصالة أو بالنيابة ويسمى قطب كل من دار عليه مقام ما من المقامات وانفرد به في زمانه على أبناء جنسه)، ونجد ايضا **أبو عبد الله التاودي**(ت580هـ/1184م) و**أبو شعيب بن سعيد الصنهاجي** (ت561هـ/1165م)، و**أبو الفضل ابن يوسف بن النحوي**(ت513هـ/1119م).

ب– المدينيون:

هم أتباع **أبي مدين شعيب**(ت594هـ/1197م) الذي تنوعت ثقافته بحكم المناطق التي رحل إليها والمشايخ الذين أخذ عنهم، فتتلمذ عن أبي الصبر أيوب بن عبد الله الفهري السبتي بفاس ، وأبي الحسن علي بن غالب القرشي(ت568هـ/1172م) وهما ممن تتلمذ عن ابن العريف، وأخذا عنه تصوفه القائم على الزهد في كل شيء ماعدا الله، وأخذ العلم أيضا عن أبي عبد الله الدقاق الذي اعتمد أسلوب المجاهدة النفسية في تصوفه، إلى جانب أبي الحسن علي بن إسماعيل بن حرزهم الذي سمع عليه رعاية المحاسبي، إلاّ أنه انتفع واستفاد أكثر من أبي يعزى يلنور (ت572هـ/1176م) الذي ألزمه القيام لمجاهدات والرياضات كالصيام، وعند انتقاله إلى المشرق أخذ عن مشايخه تعاليم ومبادئ المتصوفة الكبار أمثال الجنيد والقشيري و الغزالي، والتقى أثناء تواجده بعرفة **بالشيخ عبد القادر الجيلاني** (ت560هـ/1164م) وتأثّر بأفكاره وخلص في الأخير إلى طرح مذهب صوفي مزج فيه بين ما أخذه من ثقافات، وقد قام على عدة أسس فرأى أن الزهد الحقيقي هو الذي يطهر قلب المريد من شهوات الدنيا ويغمره بحبه لله ويتم ذلك بالمداومة على ذكره تعالى عزّ وجّل، وحارب الزهد في المظهر الخارجي ، كما رأى ضرورة محاسبة المريد لنفسه بالقيام بالرياّضات حتى يفرغ بذلك قلبه من أمور الدنيا وعمّا سوى الله، ويتمكن المريد من الوصول إلى مرحلة الكشف بعد تطهيره لقلبه وتكشف له حينها الحقيقة الالاهية فيكتسب العلوم اللدنية.

ج– الماجريون:

أتباع **أبو محمد صالح بن ينصارن الماجري**(550هـ-631هـ/1155-1233م) صاحب الرياضات و المجاهدات الكثيرة زهد في كل شيء وأكثر من الصلاة والصيام، أنشأ رباطا بأسفي حيث اجتمع إليه المريدون ولقّنهم ما أخذه عن أبي مدين من تعاليم فضلا عن أفكار الغزالي الصوفية، وتخرج على يده عدد كبير من المريدين ممن اتبعوا طريقته في التصوف وعملوا على نشرها.

د– الشاذليون:

نسبة إلى أبي الحسن الشاذلي الذي تتلمذ على يد مجموعة من المشايخ الذين نهلوا عن المتصوف الشهير أبا مدين شعيب، **كأبي محمد عبد السلام بن مشيش** (ت625هـ/1227م)، وتمثلت تعاليم تياره في خمسة أسس هي:" تقوى الله في السر والعلانية وإتباع السنة في الأقوال و الأفعال والإعراض عن الخلق في السر والعلانية...، والرضا عن الله في القليل والكثير، والرجوع إلى الله تعالى في السراء والضّراء"، اعتمد على القرآن الكريم والسنة كأساس في سلوكه الصوفي وحافظ على أداء كل الفرائض، كما عمل على تطهير نفسه بالمداومة على الرياضات و المجاهدات حتى يخلص في الأخير إلى فراغ قلبه من أمور الدنيا وشهواتها.

أقرّ في مذهبه بقدرة العقل البشري على إدراك الحقائق الالاهية ومعانيها، وشكّل ذكر الله إحدى الأسس التي قامت عليها طريقته الصوفية، وكان يأمل في كل ذلك الوصول في الأخير إلى المحبوب وهو الله والاتصال به، ومن تلامذته **أبا العباس المرسي**(ت685هـ/1287م) والمتصوفة السيدة **عائشة المنوبية أوللا المنوبية**(ت665هـ/1266م).

ج– التيار الإحساني:

خلال النصف الثاني من القرن 6هـ/12م برز المتصوف **أبو العبّاس أحمد بن جعفر السبتي الخزرجي**(ت601هـ/1204م)بمذهبه القائم على الصدقة، قام مذهبه على أساس أن "الوجود ينفعل بالجود"، وكان يقول دائما "افعل مع عبيد الله ما أردت أن يفعله الله معك"، وهو بكلامه هذا يرى أن أساس تواصل الحياة واستمرارها مرتبط بالصدقة والإحسان، فمن خلالها تزول الفوارق الطبقية ويتساوى البشر في الدنيا الغني والفقير على حد السواء، كما أنه دعا إلى ضرورة إيثار الغير على النفس حتى نضمن أن نحب لغيرنا ما نحبه

لأنفسنا، فراح يربط كل ما يجري في الحياة بالصدقة، وقد بنى مذهبه الصوفي في الصدقة على أساس قوله تعالى:﴿ **إن الله يأمر بالعدل والإحسان**﴾(سورة النحل، الآية90.)

ومنذ أن علم معنى ما قاله المولى عزّ وجلّ في هذه الآية من أن العدل والإحسان هما مشاطرة الغير في المال عمل على التصدق بكل ما عنده ، واستخدم القرآن لتدعيم مذهبه هذا وعمد إلى الدعوة لبذل الأموال للفقراء والمحتاجين فربط مبدأه في الصدقة والإحسان بالعبادة، وهو بذلك جعل مبدأ التخلي عن الأموال والممتلكات للغير أساس الحياة، **وحركته الإصلاحية هذه كانت دعوة اجتماعية إلى ضرورة مشاركة الغير في ما نملكه** ، لذا يمكن أن نعتبره قد دعا إلى **مبدأ الملكية العامة**، ورغم حرص كل متصوفة الغرب الإسلامي على الصدقة **كأبي عمران موسى** الذي اشتهر بالسخاء والإيثار، **وعبد الرحمان بن الصقر الأنصاري** (ت559هـ/1163م)، **وعلي بن محمد هذيل** (ت564هـ/1168م) ، إلاّ أن أبا العباس السبتي ذهب إلى أبعد من أن تكون الصدقة مجرد محاولة لمساعدة الغير بل جعلها أساس الدين والدنيا.

د– التيار الصوفي الباطني:

عمل أصحابه على المداومة على الرياضات ليخلصوا في الأخير إلى معرفة الله وهذا ما عرف عندهم بالوصول الذي اعتبروه المثل الأعلى للمعرفة الالاهية، والتيار الصوفي الباطني الذي عرفه الغرب الإسلامي تمثل في تيارين هما:

***التيار الباطني المعتدل:**

تأثر أصحابه بأفكار الغزالي واعتمدوا على المجاهدات والرياضات النفسية للوصول إلى الله فضلا عن ميلهم إلى العلوم الباطنية، واتخذوا من الزهد شعاراً، وحافظوا في كل ذلك على إتباعهم المذهب المالكي وارتكازهم عليه، وكانت بوادر هذا التيار مع عصر المرابطين إذ بدأ التصوف ينحو من مجرد تصوف ساذج إلى تصوف فلسفي، ومن أقطاب هذا التيار **أبو العباس أحمد بن العريف الصنهاجي**(ت535هـ/1140م)، وتضمن كتابه محاسن المجالس أفكاره وناقش فيه **المقامات(هي العبادات والمجاهدات والرياضات التي يقوم بها المريد من أجل الاتصال بالله وتتمثل في التوبة والورع والزهد والفقر والصبر والرضا والتوكل)**الصوفية التي يمر بها المريد من أجل الوصول إلى الله التي انطوت معانيها على المنحى الباطني الذي اتبعه، والذي قام على أساس رفضه

للمقامات و**الأحوال(الأحوال تمثل الحالة النفسية التي يعيشها المريد في أثناء تقدمه في المقامات السابقة، وقد حصرها الطوسي في عشرة أحوال وهي:المراقبة والقرب والمحبة والخوف والرجاء والشوق والأنس والطمأنينة والمشاهدة واليقين)** التي يسلكها المريد لأنه يسعى عبرها إلى مقام الفناء في الله المتعالي عن كل مخلوق، هذا إلى جانب أنه من يصل إلى مقام الفناء في الله يصبح حينها لا إرادة له ولا رجاء ولا شوق، ورفض ابن العريف للمقامات والأحوال كان مبنيا على أساس أنها من منازل العامة والاعتماد عليها يمنع السالك من الوصول إلى إدراك الحقيقة الالاهية، غير أن رفضه هذا قام على أساس أن تلك المقامات والأحوال تحمل معاني مختلفة، **فالعامة** منها هي المقصودة بالرفض، وهناك معاني خاصة بهم يعتمدون عليها فمثلا الزهد" يعني زهد العام وهو ترك الحرام وزهد الخاص وهو ترك الفضول من الحلال وزهد الأخص وهو ترك ما يشغله عن الله تعالى"، ولاشك أن رفض ابن العريف كان موجها للمعنين العام والخاص اللذين اعتبرهما من الآفات التي تعوق المريد عن الوصول إلى إدراك الحقيقة الالاهية، وأكد على أنه اتبع في مذهبه الشرع.

وإلى جانب ابن العريف برز **أبو الحكم عبد الرحمان بن أبي الرجّال المعروف بابن برجان**(ت536هـ/1141م) و**أبو الحسن علي بن إسماعيل بن حرزهم**(ت559هـ/1163م)، و**أبو بكر محمد بن الحسين الميورقي** (ت537هـ/1142م).

*** التيار الباطني المتطرف الثائر:**

عمد أصحابه إلى تبني الثورة ضد السلطة القائمة بالغرب الإسلامي إبّان عصري المرابطين والموحدين، وقد عملوا على البحث عن مصدر يساعدهم على بناء نظريتهم في السلطة وهذا ما جعلهم يتجهون نحو التشيع، فراحوا يوظفون بعض أسس الفكر الشيعي الباطني في صراعهم السياسي ضد السلطة ، ومن أقطاب هذا التيار **أبو القاسم أحمد بن الحسين بن قسي** بالأندلس **ومحمد بن عبد الله بن هود الماسي** بالمغرب، ومن الأفكار الشيعية التي جسّدها أتباع هذا التيار مسألة الولاية اذ تسمى ابن قسي بالإمام، وادعى ابن هود الماسي المهدوية.

3- التيارات الصوفية الفلسفية:

عمد متصوفتها على بالمجاهدات والرياضات والعمل على كشف حجاب الحس والإطّلاع على حقائق الوجود مما لا يدركه سواهم وتحصل لهم حينها المواهب الربّانية، فتكشف لهم حقائق الملك والروح والعرش واختلفوا في أساليب قيامهم بالمجاهدات وكيفية تقوية نفوسهم بالذكر ونجمل هذه التيارات فيما يلي:

أ- التيار الإشراقي:

يرى أصحابه أن المريد يتمكن من الوصول إلى معرفة حقيقة الوجود من خلال النور الذي يقذف في قلبه من قبل المولى عزّ وجلّ، ويتم له ذلك كله بعد مجاهدة النفس وتطهيرها، واعتبروا أن الملأ الأعلى من نور يتمكن المريد من الوصول إليه بعد تطهير نفسه، وانتشر هذا التيار بالغرب الإسلامي ومما ساعد على ذلك تلك المؤلفات التي ساهم أصحابها بها في تسهيل الطريق على المريد، ومن أقطابه **أبو إسحاق إبراهيم بن محمد النفري**(ت 562هـ أو563هـ/1166-1167م) و**أبو الحسن علي بن أحمد الحرالي**(ت637هـ/1239م).

ب- تيار الوحدة المطلقة:

قام هذا التيار على أساس أن المولى هو سر كل الوجود، وأن العقل البشري يتوهم كل ما يحيط به إذ تتقاسم الإنسان قوتان قوة الحق وقوة الباطل وهذه الأخيرة هي سبب حصول تلك الأوهام للعقل، وبقيام الإنسان بالمجاهدات والرياضات يستطيع التغلب على هذه القوة له فيحصل له بذلك حلول الحق في ذاته، ويتوصل في الأخير إلى حالة الكشف فتنكشف له أسرار الكون وتتجلى له كل معانيه وتمثل هذا التيار في:

*** الدراويش:**

من رواد هذا التيار طائفة **الشوذية** نسبة إلى **عبد الله الشوذي** الذي لِ إلى تلمسان في زي المجانين، وكان يبيع الحلوى للأطفال الذين ينقرون له فيشطح ويدور مردداً أشعاراً له في المحبة ولذا عرف بالحلوي، ثم كان ينصرف بعدها بركوبه قصبة على هيئة الفرسان وهو في كل ذلك يعمل على التستر على مذهبه الصوفي، غير أنه هناك من المتصوفة من سبقه واعتمد على التستر بالبله **كأبي محمد عبد الحق أمسطوط** أي المجنون وسمي كذلك لركوبه قصبة وجريه بها ، **وأبي عبد الله العربي**(ت611هـ/1214م) هو الآخر تستر بالبله لإخفاء مذهبه الصوفي، وعمل أبو **عبد الله الحلوي** في مذهبه على **الإحسان والصدقة** فكان يتصدق بثمن الحلوى

التي كان يبيعها للأطفال، وصرّح بمذهبه في **الوحدة المطلقة**، ونجد ايضا من أقطابه **أبو إسحاق إبراهيم بن يوسف ابن المرأة**(ت610هـ/1214م).

* **السبعينية:**

نسبة إلى **عبد الحق ابن ابراهيم ابن سبعين**(ت669هـ/1270م) الذي قرأ على مذهب أبي **عبد الله الشوذي** من خلال ما صنّفه تلميذه ابن المرأة، وعُرف أتباعه بالسبعينية منهم **علي بن عبد الله النميري الششتري**(ت668هـ/1269م)، **ويحي بن أحمد بن سليمان** الذي تتلمذ له أيضا.

وعمل ابن سبعين على إخفاء مذهبه الصوفي الفلسفي واجتهد في انتقاء ألفاظه حتى لا تطغى عليها المصطلحات الفلسفية فينفر الناس منه، واستخدم شطحاتٍ ورموزًا جعلته ينحو سلوك **أتباع الوحدة**، والمحور الأساسي الذي قام عليه مذهب ابن سبعين في الوحدة المطلقة يكمن في أن **وجود المولى عزّ وجل هو الوجود الواحد** الذي يتمثل فيه **وباقي المخلوقات الموجودة وجودها عين وجوده عزّ وجل، أي أن الوجود واحد في حقيقته ثابت** وهذا ما عبّر عنه ابن سبعين" بالإحاطة"، وخلفه تلميذه الششتري الذي أخذ عنه مذهبه الصوفي.

ج– تيار وحدة الوجود:

يقول أصحابه بأن الوجود واحد ويتمثل في الله وأنه صادر عن صفة الوحدانية ، ومن أقطابه **محمد بن علي بن محمد الطائي الحاتمي المعروف بابن عربي**(638هـ/1240م) أخذ عن عبد الحق الاشبيلي الذي حدّثه بمصنفاته التي ألّفها،كما أخذ عن أبي عمران الميرتلي وأبي الحسن بن حرزهم وأبي بكر بن العربي، وكان يلازم قراءة الرسالة القشيرية حتى عرف بالقشيري، وتتلمذ على يد العجوز المتصوفة نونة فاطمة بنت ابن المثنى القرطبية التي أخذ عنها مدة سنتين، **ويعتبر ابن عربي امتدادًا لمدرسة ابن مسرة بالأندلس** فقد كان بعض أساتذته متشبعين بأفكار ابن مسرة، مما ساهم في اطلاعه على مؤلفاته، وقد جمع مذهبه بين الفلسفة والتصوف معًا، **والمحور الأساسي الذي قام عليه هو وحدة الوجود على أساس أن الوجود واحد في جوهره لكنه أكثر من ذلك في الظاهر وهذا ما تدركه حواس البشر وعقولهم**، ويعد ابن عربي أول من وضع مذهب وحدة الوجود في التصوف الإسلامي،ورأى أن الله سبحانه وتعالى خلق الخلق بما فيهم الإنسان ليرى نفسه ويعرفها فيهم فتتجلى له صفاته

وأسماؤه فيهم، وهذا لا يفهم منه أن الله أظهر ذاته المطلقة بل كشف عنها بتقييد لأن الموجودات الظاهرة المقيدة تزول والله لا يزول.

وحتى يتمكن المريد من الوصول إلى الحقيقة حسب ابن عربي عليه يقوم بالرياضات والمجاهدات التي تعمل على تطهير نفسه، ويستطيع حينها أن يحلّ فيه الله ويسيّر كل حواسه ويبعث فيه النور الإلاهي، وبالتالي يمتلك قدرة جديدة يدرك من خلالها حقائق تفوق قدرة العقل البشري العادي، وذهب إلى أبعد من ذلك إلى القول **بوحدة الأديان**، كانت له شطحات في أقواله وشعره كقوله بأنه يعرف **اسم الله الأعظم(هو الاسم الجامع لجميع الأسماء، وقيل هو اسم الذات الموصوفة بجميع الصفات أي المسماة بجميع الأسماء)**، وقد تعرض للنقد اللاذع لأفكاره التي شطح فيها فجاءت مناقضة لما يتقبله العقل البشري، وهذا ما تفسره كثرة أسفاره التي جال فيها عدة بلدان، ومن رواد هذا التيار بتلمسان **أبو العيش بن أبي زيد عبد الرحيم الخزرجي**.

وما يمكن قوله أن التيارات الصوفية التي تم ذكرها سابقا تتواصل فيما بعد وتتخذ شكل الطرقية وتبرز لنا أسماء لامعة في مجال التصوف بالغرب الإسلامي واصلت ما بدأه أقرانها الأوائل ونذكر منهم على سبيل المثال:

***محمد بن عمر الهواري(ت843هـ/1439م).**

***إبراهيم التازي(ت866هـ/1461م).**

***محمد بن يوسف السنوسي(ت875هـ/1470م).**

***عبد الرحمان الثعالبي(ت895هـ/1489م).**

***أحمد زروق الفاسي البرنسي(ت899هـ/1493م).**

جامعة زيان عاشور

محاضرة 4: مكانة المتصوفة في المجتمع

1- مكانة المتصوفة عند السلطة:

تأرجحت علاقة السلطة بالمتصوفة ما بين علاقة توتر واحتواء وتقرب بحسب الظروف والانتماءات المذهبية والفكرية للمتصوفة، فكانت علاقة السلطة المرابطية متذبذبة إذ تضايقت من التيار الصوفي المعتدل الذي استخدم كراماته للتعبير عن موقفه مما يجري في المجتمع، فضيقت عليه الخناق وحدّت من نشاط أقطابه وضربت أتباع الغزالي بحرقها لكتابه "احياء علوم الدين" سنة 503هـ/1109م بأمر من الأمير علي ، كما راقبت مجالس المتصوفة كإخراجها أبو الفضل بن النحوي من مسجد سجلماسة بحجة تدريسه علوم محظورة، وراقبت مراسلات وخطابات المتصوفة التي كانوا يتبادلونها فيما بينهم بل وحالت دون وصولها لأصحابها في كثير من الأحيان، كما اشخصت بعض المتصوفة الى مراكش لاختبارهم أمثال: ابن العريف الذي سجنته ثم اطلقت سراحه وابن برجان ومحمد بن الحسين الميورقي وغيرهم.

يمكن أن نعتبر تلك النكبات التي عرفها متصوفة الغرب الاسلامي على يد السلطة المرابطية قد لعبت فيها الخلفيات السياسية دورا هاما إذ تدخل في اطار دفاع السلطة عن وجودها ومكانتها، غير أن هذه السياسة لم تجد نفعا مع المتصوفة فاضطرت السلطة المرابطية حينها الى احتواء الوضع وانتهجت سياسة التقرب وبدت مظاهرها جلية مع سعي بعض الأمراء الى التبرك بالمتصوفة والتماس الدعاء منهم وأغدقت بعضهم بالأموال، وبلغت سياسة الود ذروتها مع أسرة آل آمغار بآزمور إذ أحاطتهم السلطة بالاحترام والتوقير.

وفي العصر الموحدي سعى بعض الخلفاء الى التقرب من المتصوفة والتماس الدعاء منهم مثلما جرى مع الخليفة أبو يعقوب يوسف الذي كثر عدد المتصوفة في عهده، وقد وظف الموحدون كرامات المتصوفة لصالحهم وأقطعت السلطة الموحدية أراضي للمتصوفة وخصصت مبالغ مالية لهم ضمن الشرائح الاجتماعية التي لا عمل لها، مثلما جرى لأبي العباس السبتي الذي خصص له يعقوب المنصور راتب وحبس عليه دار بمراكش وزاوية، وعرف التيار الغزالي رواجا بانتصار الموحدين له فانتشرت مؤلفاته.

واتخذت السلطة الموحدية وجها آخر في علاقتها بالمتصوفة من خلال اشخاص بعضهم وسجنهم وتهديدهم بحسب الظروف الداعية لذلك وأفكارهم وكراماتهم التي أثارت مخاوفها، فسجنت علي بن حرزهم ثم أطلق

الخليفة عبد المؤمن سراحه، وأشخصت أبو مدين شعيب إلى مراكش غير أن المنية وافته قبل الوصول وفرضت الاقامة الجبرية على بعض المتصوفة.

أما التيار الصوفي المتطرف والثائر فقد انتهج أسلوب الثورة و العمل المسلح ضد السلطتين المرابطية والموحدية وتزعمه ابن قسي بالأندلس وابن هود الماسي بالمغرب الأقصى وتم القضاء عليهما.

وفي العصر المريني اتخذت السلطة موقفا ايجابيا اتجاه المتصوفة وسعى سلاطينها إلى اظهار ميولهم واهتمامهم بهذه الشريحة، واشتهر يعقوب بن عبد الحق المريني بشدة حبه للمتصوفة كما قربهم أبو الحسن المريني وعطف عليهم وبلغوا في عهده مبلغا عظيما وقد سكت السلاطين عن صد وامتناع المتصوفة عن استقبالهم، وسعى سلاطين الدولة الحفصية لنيل بركة المتصوفة وحظيت المنوبية بحماية السلطة خوفا من شعبيتها بل كان يقرأ ألف حساب للطرق الصوفية آنذاك لما تقتضيه المصلحة السياسية، والسلطة الزيانية هي الأخرى قدست الأولياء والمتصوفة فيغمراسن كان محبا لهم ساعيا لنيل بركتهم حريصا على زيارتهم ونال أبو عبد الله بن مرزوق مكانة كبيرة عنده حتى أوصى بدفنه إلى جانبه.

2- مكانة المتصوفة لدى العامة:

أحيط المتصوفة بالاحترام والتعظيم وسعت العامة للحصول على بركتهم ودعائهم لهم ولأبنائهم، وكانوا ون على بعضهم بعد صلاة الجمعة يتمسحون بهم ويطلبون الدعاء منهم، وتعززت مكانة هذه الفئة في المجتمع لدى العامة والخاصة وباتت مُعظمة فحُفت جنائزهم وقبورهم بالاحترام أيضا وشكلت إحدى المقامات ظمة التي يقصدونها للتبرك، وكانت القبائل تتنازع حول نيل البركة من قبور المتصوفة عند دفنهم وتبركوا بنعشهم واحتفظوا بتراب قبورهم للاستشفاء به، كما فضلوا الدفن بجوار قبورهم لنيل مغفرة الله بقربهم وهذا ما زاد في شعبيتهم وأثار مخاوف السلطة والفقهاء في كثير من الأحيان وكان وراء حقدهما على المتصوفة.

3- علاقة المتصوفة بالفقهاء:

أفكار المتصوفة علاقتهم بالفقهاء غير أنها تميزت بالتوتر على العموم وتخللتها فترات سلم، وفي العصر المرابطي غلب عليها التوتر وبلغ ذروته مع مهاجمة الفقهاء لكتاب "الاحياء" للغزالي وكان ذلك رد فعل على النقد اللاذع الذين تعرضوا له في الاحياء، واقبال المتصوفة على قراءته والاخذ بأفكار صاحبه دفع بالفقهاء

الى معارضتهم والاقبال على الافتاء بحرقه بزعامة القاضي ابن حمدين، وضيقوا الخناق على أتباعه وكانوا وراء العداء الذي أبدته السلطة ازاء أتباع الغزالي، كما سعوا لاستدعائها بعض المتصوفة مثل سعي القاضي ابن الأسود لإشخاص ابن العريف ثم سممه بعد اطلاق السلطة سراحه، وكان لدافع المذهب دور في عدائهم للمتصوفة كسعيهم لسجن الميورقي الظاهري المذهب، وعقدوا مجالس لمناظرة المتصوفة والتي تنتهي بإدانتهم وسجنهم مثلما جرى لابن برجان، واستخدم المتصوفة كراماتهم في رد مكائد الفقهاء إذ دعا ابو الفضل النحوي ، القاضي ابن دبوس، وانفرد بعض الفقهاء بمناصرتهم للتيار الصوفي فأدانوا قضية حرق "الاحياء" كأبو القاسم بن ورد والتزمت طائفة أخرى بالحياد.

ولا نعدم وجود بعض النماذج لفقهاء ربطتهم علاقة حسنة بالمتصوفة كالقاضي عياض وابن العريف، بل فيهم من استقبل غالب بن عبد الرحمان بن عطية المحاربي بعد عودته الى غرناطة لالتماس الدعاء منه، وهناك من الفقهاء من جمع بين التصوف والفقه مثل الفقيه أبي الحسن بن حرزهم.

وفي العصر الموحدي تواصل العداء للتيار الغزالي رغم الانفتاح الفكري الذي ميزه إذ وشي ببعض المتصوفة لكلوا خطرا على مكانة الفقهاء في المجتمع كالمتصوف أبو مدين شعيب الذي وشوا به لدى الخليفة المنصور، وهاجموا المتصوفة أصحاب النزعا لصوفية الفلسفية ممن اتهموا بالمروق والزندقة، والملاحظ أن المتصوفة المالكيين قد لاقوا تضييقا في هذا العصر كما تعرض نظراءهم الظاهريون لنفس المعاملة.

واشتد الصراع بين الطرفين في العصر الزياني خصوصا اتجاه المتفلسفين من المتصوفة أمثال محمد بن خميس الذي حوكم بإيعاز من الفقهاء السنة واضطر للخروج من تلمسان، ومن مظاهر التوافق التي ميزت علاقة الفقهاء بالمتصوفة تلك المراسلات التي تبادلها الطرفين وكانت تدور حول بعض القضايا الدينية، كما شفع بعضهم لبعض لدى السلاطين فضلا عن الاجازات العلمية التي منحها بعضهم لبعض.

محاضر5– إسهامات المتصوفة في الحياة بالغرب الإسلامي

1– الاسهامات السياسية والاقتصادية:

ساهم المتصوفة في هذا المجال بتوظيف كراماتهم إذ حاربوا تعسف جباة الضرائب وتوسطوا للعامة لدى العمال لتخفيف الضرائب التي فرضوها عليها، وشاركوا في مجال الزراعة فشجعوا مريديهم على خدمة الأرض ملوا بأنفسهم في خدمة أراضيهم لضمان كسب قوتهم بالحلال، قصدتهم العامة لالتماس دعائهم عند تعرض أراضيهم للآفات الزراعية كالجراد لتفادي وقوع خسائر زراعية تضر بالاقتصاد، وأثبتوا وجودهم في مجال الحرف الصناعية كنسخ الكتب وتجليدها وإصلاح السروج وحبك البرانس، وصناعة النسيج والصيد والتجارة إذ امتلكوا دكاكين وقيساريات لبيع مختلف السلع، وفي الجانب السياسي أسهموا في تحرير الأسرى وشاركوا في المعارك للضفر بالشهادة وردوا ضربات العدو ونظرا للمكانة المرموقة التي حظي بها المتصوفة لدى سلاطين الدولة المرينية فقد خولت لهم تقديم النصيحة لهم كما سمحت لبعضهم بتفقد أمور القضاء والأحباس وحتى استشارتهم في أمور السياسة.

2– الاسهامات الاجتماعية والدينية في المجتمع:

نشط المتصوفة خلال الازمات إذ ساهموا في أوقات الجفاف والقحط بدعواتهم للاستسقاء، كما استخدموا كراماتهم في توفير الماء أوقات الجفاف، وساهموا في الوقوف إلى جانب الفئات الفقيرة فترات غلاء الأسعار والمجاعات التي عرفها الغرب الاسلامي من خلال إشرافهم على إطعامهم وتوفير المؤونة لهم، وحاولوا الحد من انتشار الفقر في الأوقات العادية بالعمل لتوفير المال والتصدق به على المحتاجين والفقراء، وانفقوا الأموال التي أغدقها عليهم الأمراء والسلاطين آنذاك وتكلفوا بشراء أضحية العيد للفقراء وسددوا ديونهم، وشكلت زاوية أبو العباس السبتي مركزا لاجتماع الفقراء والمساكين والأرامل والأيتام أين توزع عليهم الصدقات، ولعب المتصوفة دورا في بناء المرافق العامة كالمساجد والقناطر.

ساهموا في حل الخلافات الأسرية ووظفوا كراماتهم في منع قيام الفتن والحروب بين القبائل وسعوا لتوفير الأمن في المجتمع، واهتموا برفع المستوى الأخلاقي فيه من خلال محاربة الآفات التي انتشرت بين أفراده كعادة شرب

الخمر والسرقة وغيرهما، وكانوا وراء توبة العديد من أفراد المجتمع وهذا ما جعل بل ألفرد يرى أن دورهم اقتصر على الجانب الأخلاقي.

وفي الجانب الديني بنوا المساجد في البوادي لنشر التعليم ومبادئ الاسلام فضلا عن دخول العديد من المسيحيين إلى الاسلام عن طريقهم، وساهموا بالإفتاء والاجابة عن النوازل و المسائل التي أُشكلت على العامة، هذا .ون أن ننسى دورهم في تعليم الناس أمور الدين ومساعدة الفقراء على الحج، وفي المجال الطبي وظفوا كراماتهم في إشفاء الناس من بعض الأمراض المستعصية.

3- الإسهامات الثقافية والفكرية:

3-1- دورهم في التعليم:

يقول أبو مدين شعيب "من تعلم العلم ليعلم به الناس أعطاه الله فهما يعرف به"، اهتم المتصوفة بمجال التعليم فاقتصروا في تعليمهم للصبيان بالكُتّاب على تحفيظهم القرآن الكريم وتلقينهم قواعد اللغة العربية والوضوء والصلاة وأخبار الصالحين، وهناك من المتصوفة من اقتصر على داره للتعليم، وبالنسبة للشباب كانوا يلقون عليهم دروسهم في المساجد في شتى العلوم عدا المحظورة منها في بعض الفترات، فدرّسوا أصول الفقه وأصول الدين والقرآن الكريم والحديث والتفسير والأدب إلى جانب مؤلفات التصوف "كالرسالة القشيرية" و"الاحياء"، وشكلت الرابطة والزاوية أماكن للتعليم إلى جانب المساجد وكان سير الدروس يتم بالإلقاء والشرح، وفي العصر المريني ازدهرت الحركة التعليمية على يد المتصوفة إذ كان أغلبهم مدرسين بالمدارس المرينية وخطباء في زواياهم.

وشمل اهتمامهم بالتعليم عامة الناس أيضا إذ عملوا على تدريسهم لمحاربة الجهل والأمية، فعقدوا مجالس الوعظ والتذكير وفسروا للناس القرآن الكريم والحديث عن مناقب الزهاد والمتصوفة ولقنوهم دروسا في الحديث والفقه وضمت هذه المجالس فئة النساء.

3-2- دورهم في الجانب الفكري:

ساهم المتصوفة في الحـ ؛ العلمية بعلمهم ومؤلفاتهم وكانوا متضلعين في مختلف العلوم والمعارف فأجادوا قراءة القرآن ونبغوا في علم القراءات كابن العريف وابن برجان، واهتموا بالتفسير هو الآخر خاصة في العصر الموحدي .ي فتح لهم المجال لتفسير آيات القرآن الكريم وممن برز في هذا الميدان أبو العباس النفري، وقد تركوا مؤلفات في

التفسير كالحرالي وابن عربي هذا الأخير الذي ألّف "التفسير الكبير" و"الجمع والتفصيل في أسرار ومعاني التنزيل" وبرز ابن البناء بكتابه "المتشابه اللفظ في القرآن"، وفي الحديث ألّف عبد الحق الإشبيلي "الجمع بين الصحيحين" و"المرشد" وترك عبد الرحمان الثعالبي كتاب "رياض الصالحين"، وفي الفقه ألّف ابن المرأة كتاب في "إجماع الفقهاء" وألّف أبو اسحاق النفري كتاب" الوسائل في الفقه والمسائل" وألّف ابن البناء "الفصول في الفرائض" وبرع ابن النحوي في أصول الفقه وأصول الدين، وفي اللغة ترك عبد الحق الإشبيلي كتاب" الغريبين في اللغة" و"الحاوي" إلى جانب نبوغهم في الشعر والزجل والموشحات، أما التاريخ فقد اهتموا به وألّفوا فيه فألّف أبو محمد حماد الصنهاجي فهرسة ضمنها سيرة شيوخه من الصوفية ومناقبهم وأبو عمران الميرتلي ألّف كتاب "محاسن الأبرار في معاملة الجبّار".

وفي علم المنطق والفلسفة الذي عرف ازدهارا في العصر الموحدي ألّف أبو الحسن الحرالي كتاب" المعقولات الأول" وألّف ابن عربي كتاب "الحكمة الإلهامية" وفي الجدل برز أبو العباس السبتي وأبو يعزى، أما المناظرة فقد نبغ ابن المرأة والحرالي هذا الأخير الذي بلغ شأوا في العلوم العددية وألّف كتاب "الوافي في الفرائض" وترك ابن البناء كتاب "تلخيص أعمال الحساب"، وسطع نجم أبو يعزى في الطب والتنجيم وفي علم الفلك اشتهر ابن عربي وفي علم أسرار الحروف ألّف البوني "شرف الشكليات وأسرار الحروف العدديات" ولا ننسى ابن عربي الذي كان كتابه "الفتوحات المكية" موسوعة احتوت كل العلوم.

جامعة زيان عاشور